المحاضرة السادسة: فلسفة الأخلاق في الحضارة الصينية والهندية - دراسة مقارنة في الأسس والغايات والتحولات

علي كريم

مقدمة: العصر المحوري وانبثاق الوعي الأخلاقي في الشرق

تمثل الحضارتان الصينية والهندية ركيزتين أساسيتين في الفكر الإنساني، حيث قدمتا للعالم نسقين أخلاقيين متميزين شكّلا وجدان ما يقرب من نصف البشرية لآلاف السنين. إن الغوص في فلسفة الأخلاق لدى هاتين الحضارتين ليس مجرد استعراض تاريخي، بل هو استكشاف لما أسماه الفيلسوف الألماني كارل ياسبرز "العصر المحوري (Axial Age) "، تلك الحقبة المفصلية بين القرنين الثامن والثاني قبل الميلاد، التي شهدت تحولاً جذرياً من الطقوس السحرية والأسطورية إلى الفكر الفلسفي والأخلاقي العقلاني. في هذا السياق، تطرح كل من الصين والهند السؤال الأزلي: "كيف ينبغي للإنسان أن يعيش؟"، لكن الإجابات جاءت متباينة، تعكس الطبيعة الجيوسياسية والروحية لكل إقليم.

تتميز الفلسفة الصينية، كما يلاحظ المؤرخ ويل ديورانت، بكونها "إنسانية " (Humanistic) وتدنيوية في جوهرها، حيث ينصب التركيز على الحياة الدنيا، وتنظيم المجتمع، والعلاقات بين البشر، وتحقيق التناغم مع الطبيعة [1].إنها فلسفة تسعى إلى "الحكمة " (Wisdom) أكثر من سعيها إلى "الخلاص" الأخروي، وتجد في "الداو (Dao) "أو الطريق، وفي "الرين (Ren) "أو الإنسانية، ملاذها الأخلاقي.

في المقابل، توصف الفلسفة الهندية بأنها "ميتافيزيقية (Metaphysical) "وخلاصية (Soteriological). فالأخلاق في الهند ليست غاية في حد ذاتها بقدر ما هي وسيلة للتحرر من "السامسارا (Samsara) "أو دورة الولادة والموت. إن مفهوم "الدارما "

(Dharma)يربط النظام الكوني بالواجب الاجتماعي والأخلاقي، بينما يظل الهدف الأسمى هو "الموكشا (Moksha) "أو الانعتاق النهائي[2].

يستعرض هذا التقرير، في دراسة مستفيضة تقع في خمسة وعشرين ألف كلمة، الجذور التاريخية والفلسفية للأخلاق في كلتا الحضارتين، محللاً النصوص التأسيسية مثل "المحاورات (Analects) "لكونفوشيوس، و"الداو دي جينغ(Dao De Jing) "، و"الباغافاد غيتا(Bhagavad Gita) "، و"الأوبانيشاد .(Upanishads) "كما يتناول التقرير التفاعل بين المدارس المختلفة (الكونفوشية، الداوية، الهندوسية، البوذية)، ويسلط الضوء على الجهود الحديثة لعلماء مثل "سارفيبالي رادكريشنان" و"فنغ يو لان" في مد الجسور بين هذه الفلسفات والفكر الغربي الحديث، مقدماً رؤية تحليلية نقدية للفروقات الجوهرية والتشابهات الخفية بين "الحكيم" الصيني و"الرائي" الهندي.

الجزء الأول: الفلسفة الأخلاقية في الحضارة الصينية (أخلاق التناغم والنظام)

إن السمة الغالبة على الفكر الصيني هي "الاتصال بالأرض". فبينما كان الهندي ينظر إلى السماء باحثاً عن اللامتناهي، كان الصيني ينظر إلى الأرض باحثاً عن النظام. لقد تشكلت الأخلاق الصينية في بوتقة الاضطرابات السياسية، ولا سيما في "عصر الممالك المتحاربة"، مما جعل الهاجس الأكبر للفلاسفة هو استعادة النظام الاجتماعي والسياسي المفقود.

أولا: التحول الإنساني وتفويض السماء

قبل ظهور المدارس الفلسفية الكبرى، كانت الصين القديمة (في عهد أسرة شانغ) محكومة بعبادة الأسلاف والإله الأعلى "شانغ دي". ومع صعود أسرة "تشو(Zhou) "، حدث تحول جوهري. لم يعد الحكم حقاً إلهياً مطلقاً، بل أصبح مشروطاً بـ "تفويض السماء .(Tianming) "وهذا التفويض ليس شيكاً على بياض، بل هو عقد أخلاقي؛ فالسماء تمنح تفويضها للحاكم الذي يتمتع بـ "الدي (De) "أو الفضيلة، وتسحبه ممن يفسد[3].

هذا المفهوم وضع حجر الأساس للأخلاق الصينية: إن النظام الطبيعي والنظام الأخلاقي مترابطان. فالكوارث الطبيعية والفوضى الاجتماعية ليست مجرد صدف، بل هي انعكاس لخلل أخلاقي في القيادة. من هنا، نشأت فكرة أن الأخلاق ليست شأناً خاصاً، بل هي "تقنية حكم" وضرورة كونية.

ثانيا: الأخلاق الكونفوشية - هندسة العلاقات الإنسانية

لم يعتبر كونفوشيوس (551-479 ق.م) نفسه مبتكراً، بل "ناقلاً" لحكمة القدماء [3].لقد رأى في طقوس وعادات أسرة تشو الغربية العصر الذهبي الذي يجب استعادته. وتتمحور فلسفته الأخلاقية حول فكرة أن الإنسان كائن علائقي؛ لا وجود لفرد منعزل، بل هناك شبكة من العلاقات والواجبات المتبادلة.

الفضائل الجوهرية: الرين، اللي، والشياو

تقوم الأخلاق الكونفوشية على منظومة مترابطة من الفضائل التي تهدف إلى تحويل الفرد البيولوجي إلى كائن أخلاقي متحضر.

أولاً: الرين - (Ren) الإنسانية أو التراحم

تُعد "الرين" حجر الزاوية في الأخلاق الكونفوشية. الحرف الصيني لـ "رين" يتكون من رمز "إنسان" ورمز "اثنين"، مما يشير إلى أن الإنسانية لا تتحقق إلا في العلاقة مع الآخر.4 "الرين" ليست مجرد عاطفة، بل هي توجه أخلاقي يتضمن الحب، والخيرية، ومراعاة مشاعر الآخرين. عندما سُئل كونفوشيوس عن الرين، قال: "أن تحب الناس". لكن هذا الحب ليس عشوائياً؛ إنه حب متدرج يبدأ من الدائرة الأقرب (الأسرة) ويمتد للخارج، وهو ما يُعرف بـ "الحب بتمييز5.(Care with distinctions) "

ثانياً: اللي - (Li) شعائر الطقوس واللياقة

إذا كانت "الرين" هي الجوهر الداخلي، فإن "اللي" هي الشكل الخارجي. تشير "اللي" في الأصل إلى طقوس التضحية، لكن كونفوشيوس وسع مفهومها ليشمل كل قواعد السلوك، والإتيكيت، والمراسم الاجتماعية.3 يرى كونفوشيوس أن "اللي" هي القالب الذي يصب فيه الإنسان عواطفه لتهذيبها. فالحزن دون طقوس يصبح "عويلاً"، والشجاعة دون طقوس تصبح "تهوراً". إن وظيفة "اللي" هي تنظيم المشاعر الإنسانية وجعلها متناغمة مع النظام الاجتماعي. وكما يشير "فنغ يو لان"، فإن "اللي" ليست قيوداً خارجية بقدر ما هي وسيلة للتعبير الراقي عن العواطف.6

ثالثاً: الشياو - (Xiao) بر الوالدين

يُعتبر بر الوالدين الجذر الذي تنبت منه شجرة "الرين".3 في التصور الكونفوشي، الأسرة هي المدرسة الأولى للأخلاق. من يتعلم احترام أبيه وطاعة أخيه الأكبر، لن يميل في الغالب إلى التمرد على رؤسائه في الدولة. تتوسع علاقة الأب-الابن لتشمل الحاكم-الرعية، مما يجعل الدولة "أسرة كبيرة."

النموذج الأخلاقي: "الجونزي (Junzi) "

الهدف من التربية الأخلاقية الكونفوشية هو إنتاج "الجونزي" (الرجل النبيل أو الشخص المثالي). تاريخياً، كان المصطلح يعني "ابن الحاكم"، لكن كونفوشيوس حوله إلى رتبة أخلاقية تكتسب بالجهد والتعلم لا بالوراثة.7

يتميز الجونزي بعدة خصال تميزه عن "الشياو رين" (الشخص الوضيع):

- الجونزي يبحث عن الحق (Yi) ، بينما الوضيع يبحث عن المنفعة - Li) برسم مختلف.(
- الجونزي يطلب من نفسه، بينما الوضيع يطلب من الآخرين.
- الجونزي يوفق ولا يمالئ، بينما الوضيع يمالئ ولا يوفق[4].

الجدل حول الطبيعة البشرية: منسيوس وشونزي

شهدت الكونفوشية تطوراً داخلياً عبر الجدل الشهير حول أصل الأخلاق في الطبيعة البشرية.(Xing)

منسيوس :(Mengzi) الطبيعة الخيرة

رأى منسيوس أن الإنسان مفطور على الخير، مستدلاً بتجربة ذهنية شهيرة: "إذا رأى أي إنسان طفلاً يوشك أن يقع في بئر، فإنه سيشعر فوراً بالفزع والشفقة". هذا الشعور الفوري يثبت وجود "براعم" الفضيلة الأربعة الفطرية: برعم التراحم (الذي ينمو ليصبح رين)، وبرعم الخجل (يصبح يي - الحق)، وبرعم التنازل (يصبح لي - الطقوس)، وبرعم التمييز (يصبح تشي - الحكمة).8 الأخلاق هنا هي "زراعة" وتعهد لهذه البراعم.

شونزي :(Xunzi) الطبيعة المعوجة

على النقيض، رأى شونزي أن الطبيعة البشرية تميل للفوضى والشهوات (أحياناً تُترجم خطأً بأنها "شريرة"، لكن الأدق أنها "غير مهذبة"). بالنسبة لشونزي، الأخلاق هي "صنعة (Artificial) "وليست فطرة. إنها اختراع الحكماء لضبط الفوضى. التعليم والطقوس (Li) هما الأدوات الضرورية لـ "تقويم الخشب المعوج" وتحويل الطبيعة الخام إلى حضارة.9

ثالثا: الأخلاق الداوية - فلسفة "اللافعل" والعودة للطبيعة

إذا كانت الكونفوشية هي فلسفة "الإضافة" (تنمية الفضائل، بناء المجتمع)، فإن الداوية هي فلسفة "الطرح" (إسقاط التكلف، العودة للبساطة) [6].قدمت الداوية، عبر نصيها الأساسيين "الداو دي جينغ" (للاوتزه) و"كتاب جوانغ زي"، نقداً لاذعاً للأخلاق الكونفوشية، معتبرة إياها سبباً في انحطاط العالم وليست علاجاً له.

نقد الأخلاق المصطنعة

يقول لاوتزه: "عندما فُقد الداو العظيم، ظهرت (الرين) و(اليي)". بالنسبة للداويين، ظهور الدعوات الأخلاقية هو دليل على المرض لا الصحة. المجتمع الذي يتحدث كثيراً عن "البر" هو مجتمع يعاني من العقوق. فالأخلاق المقننة والقوانين الصارمة هي تدخلات قسرية تفسد التلقائية الطبيعية للبشر[10].

مفهوم "وو-وي - (Wu-wei) "الفعل بلا تكلف

المبدأ الأخلاقي المركزي في الداوية هو "وو-وي". غالباً ما يُترجم إلى "اللافعل"، لكنه لا يعني الكسل أو السلبية. إنه يعني "الفعل الذي لا يتعارض مع الطبيعة"، أو "الفعل الخالي من الجهد المفتعل."

- **الميتافيزيقا المؤسسة** :يستند هذا المبدأ إلى طبيعة "الداو" (المبدأ الكلي للكون) الذي "لا يفعل شيئاً ومع ذلك لا يترك شيئاً دون إنجاز [8]."الماء هو الرمز المفضل للداويين: فهو لين ومستسلم، يتدفق لأسفل (تواضع)، لكنه يخت الصخر (قوة ناعمة).
- **التطبيق الأخلاقي والسياسي** :الحكيم الداوي لا يفرض إرادته على العالم، بل يتماهى مع مجريات الأمور. في الحكم، يعني هذا "الحكم باللاحكم"؛ أي تقليل القوانين والتدخلات لترك الشعب يزدهر بطبيعته.

نسبية القيم عند جوانغ زي

ذهب "جوانغ زي" أبعد من لاوتزه في التشكيك بالأخلاق التقليدية، طارحاً رؤية نسبية راديكالية. هو يسأل: "كيف نعرف أن ما نسميه خيراً ليس شراً؟". يروي قصصاً عن لصوص وحرفيين بسطاء يمتلكون فهماً للداو أعمق من الملوك والعلماء المتنطعين. الأخلاق عند جوانغ زي هي "التحرر" من سجن المفاهيم والتقييمات البشرية الضيقة، والعيش في حالة من "التجوال الحر والسهل[8].(Xiaoyao you) "

رابعا: المقاربات الأخرى - الموهية والقانونية

لا تكتمل الصورة دون الإشارة إلى المدرستين اللتين نافستا الكونفوشية والداوية في "سوق الأفكار" الصيني القديم.

الموهية :(Mohism) الحب الشامل والنفعية

أسسها "موزي (Mozi) "، الذي نقد الكونفوشية بشدة بسبب "حبها المتحيز" للأسرة. دعا موزي إلى "الحب الشامل (Jian'ai) "، أي أن يحب المرء والد الغريب كما يحب والده. حجته كانت نفعية بحتة: التحيز يسبب الحروب والسرقة، بينما الحب الشامل يحقق "النفع الأكبر" للعالم.6 الأخلاق هنا تُقاس بنتائجها المادية (الثروة، السكان، النظام) لا بالبواعث النفسية.

القانونية :(Legalism) الأخلاق كأداة سلطة

رفض القانونيون (مثل هان فيزي) الاعتماد على الفضيلة الأخلاقية للحكام أو المحكومين، معتبرين أن الإنسان مدفوع بالمصلحة الذاتية والخوف. الحل ليس في "التربية الأخلاقية" بل في "القانون (Fa) "الصارم: مكافآت سخية وعقوبات وحشية. الأخلاق، في المنظور القانوني، هي الطاعة العمياء للدولة.8